البيئة في عصر التكنولوجيا
البيئة أمان وأمانة, وضمان وضمانة..

الكاتب الاستاذ الدكتور رياض حامد الدباغ
جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

فهي أمان, لأن الانسان يجد فيها وسائل الحياة, منذ البيئة الاولى في رحم الام وحتى بدايته للحياة بعد الولادة وسعيه الدائم والدائب لتحوير بيئته وتطويرها بما يجعلها اكثر امناً واستقراراً وسعادة وهذا السعي الدائم في التكيف مع معطيات البيئة وتطويع بعض عطاءاتها لتكون منسجمة ومتوائمة مع متطلبات حياته المتغيرة والمتجددة ابدا , هو سعي اصيل لاستثمار هذه البيئة لادامة الحياة ونطويرها وبعث الامن والاستقرار والسعادة فيها. فالبيئة اذا, بهذا المعنى, ضمان لحياة الانسان توفرت فيه بمشيئة الله سبحانه وتعالى كل مقومات الحياة وادامتها على شكل عناصر ومواد وموارد لما كانت البيئة امانا للانسان وضمانا لحياته, فهي اذن, امانة في عنقه, عليه ان يستثمرها في الوقت الذي يجعلها مثمرة لغيره.

والامانه في مفهوم البيئة, امانة مزدوجة, وامانة متبادلة فهي مزدوجة لان البيئة مفتوحة امام الانسان الذي يتحمل مسؤولية استثمارها والمحافظة عليها, لأن مسؤوليته في الاستثمار والاستفادة لاتعفيه من مسؤوليات المحافظة على البيئة بما فيها من موارد وخيرات لغيره من البشر والاجيال القادمة. وحيثما توازن شعور الانسان بهاتين المسؤوليتين, فان البيئة تستمر في عطائها له ولغيره.

وكما أن للانسان مشكلات مع بيئته, فان البيئة لها مشكلات مع الانسان. وكما ان الانسان لايستقيم له عود في الحياة كذلك البيئة لاتستثمر عطاءاتها بغير تدخل الانسان, تدخلا يحفظ للبيئة عطاءها وموارها ويمنع الانسان من التجاوز والجشع على حساب البيئة او على حساب الاخرين من بني جنسه.

ولذلك كان ينبغي ان يكون تدخله لتطويع البيئة ولاستثمار مواردها تدخلا عقلانيا متوازنا ورشيدا. وقد قسم الانسان بعد ان بلغ شأوا بعيدا في الثقافة والتحضر هذه البيئة الى بيئات, منها بيئة طبيعية اطلقها على مظاهر الطبيعة البكر ومواردها الطبيعية ليس للانسان دخل فيها, وبيئة حضرية مشيدة بناها الانسان بحكم

طبيعة تطور الحياة وتغير احتياجاته وتطلعاته كمواقع السكن ومواقع العمل التي اكتسب يوما بعد يوم شروطا خاصة لادامتها اقرب ماتكون الى شروط البيئة الطبيعية. كما ان تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتطور تبادل العلاقات بين الامم حتمت وجود بيئات زراعية واخرى صناعية لها شروطها في الاقامة والادامة والتطوير فرضت على المستفيدين منها ومن نتائجها ضرورة التقيد بسلوكيات معنية للمحافظة على انتاجها.

وهكذا نجد ان الكون هو بيئة الانسان وان الارض هي البيئة اللصيقة به وان موارد الارض هي مولده الخام في حياته وتهيئة اجواء الحياة للاخرين من بعده. ولئن كان الانسان بحكم نموه المعرفي والثقافي ونظرته الفلسفية لتفسير سببية الحياة وكنهها قد اكتشف ان هناك بيئة سيكولوجية خاصة بكل فرد من الافراد تختلف عما لغيره من بيئات سيكولوجية بحكم الفروق الفردية والخبرات الثقافية وبحكم التنشئة الاجتماعية والتجارب الحياتية, وهي بيئة لاتقل خطورة واهمية في التأثير على حياة الانسان العامة من اثار الطبيعة ومؤثراتها. وقد بدأت مشكلات البيئة مع الانسان منذ ان بدأ الاخير يسيطر على مواردها ويستثمرها باستخدام العنف والتلويث, سواء بقطع الاشجار دون خطة موازية الحرائق التي تحدث نتيجة اهمال للتشجير الانسان او تعمده. او بتلوث المياه بالمخرجات الصناعية التي اهمل الانسان تصريفها او استسهل اغراقها في الانهار والمحيطات التي بدأت تؤثر في الاحياء المائية من جهة وفي الانسان مباشرة من جهة ثانية, او التلوث في الهواء الذي لايقل اهمية عن تلوث المياه, لانهما معا (الماء والهواء) عنصران من عناصر الحياة.

وانتبه الانسان مؤخرا الى اثار مااقترفت يداه من التلويث بانحسار هذه الموارد وارتفاع تكاليف تطويعها كمورد للحياة او تنظيفها كمصدر حياتي مهم. فالانتباه الى ثقب الاوزون مازال نذيرا مهما للانسان, وتلوث المحيطات بمشتقات البترول وبالنفايات مازال نذيرا اخر, واغراق المواد المشعة والنفايات الذرية مازال النذير الثالث, وتوالت النذر والانسان لازال حائرا بين مباديء الحفاظ على البيئة ومصالح الحياة والتطور وقد لايطول الزمن ليرى الانسان ان كثيراً من عطاء البيئة ومواردها غدت صعبة المنال بعد ان كانت تجري بين يديه فلم يستجب لهذا العطاء وبالترشيد والاعتدال.

أين نحن الان من هذه البيئة, وقد اسلفنا بانها امانة وليست (ورثا) وهذه الامانة تستدعي الانسان ان يتعامل بدقة واعتدال وتوازن لانها حق له وحق لغيره, فحرص الانسان على الحياة يقابله حرصه على حياة ابنائه واجياله القادمة, والبيئة واحدة لاتطلب من الانسان والا شحنها بطاقات طالما استنفذ منها طاقات, فالزراعة وتسميد الارض, ورعاية الحيوان وتكثيره والتشجير والترشيد في استخدام المياه وفي استثمار الموارد عامة,

مطلب حياتي واساسي. ويجدر بنا , في هذا المقام ان نستذكر حديثاً نبوياً شريفاً مؤداه, من كان يتوضأ على نهر فلا يبذر الماء, كان هذا الحديث قبل الف واربعمئة عام حينما كان الانسان لم يزل في بواكير استخدامه للموارد المائية التي كانت تقتصر على المتطلبات الحياتية والسقي لا اكثر, ولم تكن الاستخدامات معروفة وقتئذ, مع ذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من ويعلم الترشيد وينبذ التبذير.

كما انه في حديث اخر يقول, يقول, اذا قامت القيامة وفي يد احدكم غرسة فليغرسها انه تعليم وتوجيه وتربية اصيلة للتعامل مع البيئة, كما ان الاية الكريمة تلخص كل ذلك في قوله "وكلوا واشربوا ولاتسرفوا".

اذا كانت البيئة امانة وضمانا, فأين ضماناتها ؟

واذا كانت هذه الضمانات مقرونة بموارد البيئة فاين منها الانسان ؟

وكيف يطلب ضمانة من بيئة لم يضمن لها حسن الادامة وحسن المحافظة عليها ؟

والبيئة كما نعلم, واحدة ومايؤثر في جزئها يتأثر به كلها, وفي المفهوم الحديث الذي قدمه مؤتمر الامم المتحدة للبيئة البشرية والمنعقد في استوكهولم عام 1972 ايضاح كاف, حيث اعتبر البيئة بانها اكثر من مجرد عناصر طبيعية بل هي رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لاشباع حاجات الانسان وتطلعاته.

ونستطيع ان نؤكد هنا بان (اشباع) الحاجات شيء (وتلبية) الحاجات شيء اخر والنزوع نحو الاشباع الذي لاحد له فالانسان بطبعه ميال الى عدم الاكتفاء ولو اكتفى الانسان بتلبية حاجاته (ولم يسرف) في اشباعها, لوفر للبيئة عناصر اساسية يستفيد منها الانسان.

وهنا لابد من الاشارة الى ان متطلبات التنمية (مهما كانت) فان جانبا من جوانبها الاساسية هي المحافظة على البيئة (وتنميتها) فلايمكن تقديم تنمية للانسان ولحياته مالم تكن هناك تنمية للبيئة التي يعيش فيها وعليها وبهذا الاعتبار فلا تتعارض مقومات التنمية ونتائجها مع مقومات ادامة البيئة ومواردها. وان الاخلال بالقوانين التي تحكم البيئة وتحد من تجاوز الانسان عليها يعتبر اخلالاً باخلاقيات التعامل مع الحياة وضرورات التوازن في هذا التعامل. ولكن (التنمية) شيء و(استرتيجيات) الدول المتقدمة والمتحكمة على البيئة بتكنولوجياتها ونتائجها الصناعي والعلمي, شيء اخر فالمصالح الاستراتيجية تضرب صفحا عن المباديء الاخلاقية والانسانية والاعراف الدولية حينما تكون الاولوية مزيدا من التقدم ومزيدا من الرفاه على حساب الامم الاخرى وعلى حساب البيئة الطبيعية.

فلو تصورنا ان موارد افريقيا ونتاج مناجمها ظلت في افريقيا فهل كنا نتوقع ان يتضور الافريقي جوعا او ينظر من المستفيدين من موارده مساعدات اقتصادية في الوقت الذي تجثم افريقيا على مناجم الذهب والماس والفحم غير البترول والمعادن الاخرى. وعلى غرار الافريقي هناك امثلة اخرى كثيرة تدل دلالة واضحة على ان البيئة في صراع بين اصحابها من جهة والمستفيدين المحتكرين من جهة اخرى. ومن هنا كان الصراع الاقتصادي الذي تنفتح ساحاته للدول المتمكنة والمقتدرة علميا وتقنيا وعسكريا, وتنحصر امام الدول التي تفتقر الى مقومات السيطرة على مواردها, فالنتيجة معلومة وهي ان موارد الدول الفقيرة تغذي مقومات وقدرات الدول الغنية لتزيدها قوة وغناء وتزيد اصحاب الموارد فقرا وتبعية. فاين ضمانة السلام اذن في هذه البيئة التي تدب على ظهرها قوى الاحتكار والجشع الانساني والنظرة الجزئية او الفردية للاستثمار؟ وكيف تسلم البيئة وهي تستقبل مخلفات الانسان ومخلفات مصانعه ونفاياته الذرية بمقدار اكبر بكثير مما تستقبل عنايته لها؟ ان الهدم الانساني للبيئة واندثارها نتيجة تجاوزاته القانونية عليها اكبر بكثير من التعمير والتشجير والاستثمار الامثل للموارد فضلا عن التبذير والاسراف فبهذه الموارد التي لاتتناسب ابدا مع نسبة التزايد السكاني وارتفاع متطلبات المعيشة وضرورات الامن الغذائي الذي اصبح مفهوما متداولا بعد انحسار طاقات البيئة على العطاء الغذائي نتيجة ترك الانسان لاستثمار موارد زراعية وتنميته المستديمة للارض وترك الاستصلاح والبزل وما الى ذلك.

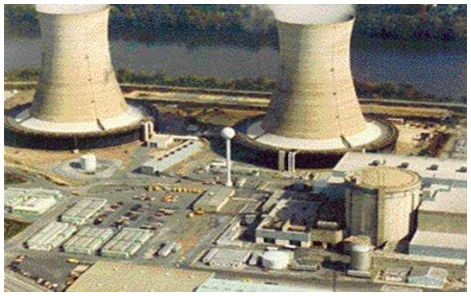

ان حماية البيئة والموارد الطبيعية مطلب بشري حيوي ولايمكن الايفاء به مالم يستشعر البشر باهمية استثمار هذه الموارد وحمايتها من الاندثار والزوال.

وهذا الامر يتطلب تعاونا بين الدول جميعها, لان الامر اشبه مايكون بسفينة فيها ركاب متنفذون واخرون غير متنفذين ولكن حياة الجميع مقرونة بسلامة السفينة, وكذلك البيئة الطبيعية فهي واحدة وهي شائعة للجميع فلا يصح ان تكون حكرا لمجموعة دون مجموعة اخرى, ولايصح ان تأخذ الاعتبارات العسكرية الاستراتيجية والسياسات المتقاطعة اهمية اكثر من المباديء العامة في التعايش السلمي والتعاون من اجل البناء والتوزيع العادل للثروات والاستثمار المتوازن للموارد.

المقال منشور في مجلة البيئة والمجتمع,والتي تصدر عن مؤسسة زايد الدولية للبيئة / العدد 110/ مارس/2012